فلسطين أولاً

أدوات النضال الشعبي:

مقاربة بين الماضي والحاضر

أدوات النضال الشعبي: مقاربة بين الماضي والحاضر

أنوار قدح

من المعلوم أن الواقع الاستعماري الذي يعيشه الشعب الفلسطيني اليوم ليس حدثًا مستجدًا، فالاستعمار الصهيوني وريثُ مقيتُ للاستعمار البريطاني الذي يُعد المسؤول الأول عما نحن فيه بالتعبير الحديث ورأس الأفعى كما كان يدعوه أجدادنا، وإنّ التنبّه إلى خطر الصهيونية لم يكن وليد نكبة عام 1948، كما يحلو للكثيرين الترويج له، مُدّعيين بأن الفلسطينيين كانوا من السذاجة بمكان لم يسمح لهم برؤية أبعاد المشروع الصهيوني، وأنهم ساهموا بذلك المشروع عبر بيع أراضيهم لليهود قبل 1948، وخروجهم طواعية من بيوتهم في حرب 1948 لإيمانهم بحتمية عودتهم بعد انتهاء الجيوش العربية من حسم أمر المعركة، وتلك الادعاءات المُضللة تُحمّل الجيل الماضي من الشعب الفلسطيني مسؤولية ما آلت إليه الأمور، وتساهم في تبرئة ساحة الاستعمار الصهيوني من مسؤولياته التاريخية.

إن المهمة الحقيقية التي تقع على عاتق المؤرخين أيًا كانت جنسيتهم تتجلى في إظهار حقيقة الأمور عبر الوقوف على المصادر التاريخية والتحقق منها، ومعالجتها بعين الزمان الذي كُتبت فيه وليس بعين الوقت الحاضر الذي يعيشه المؤرخ، ومن المصادر الخصبة التي يمكن العمل عليها لرسم صورة أقرب ما تكون للواقع في فلسطين قبل 1948 هي الصحف والجرائد والمجلات التي كانت تصدر في زمن الانتداب، وهي تظهر بصورة جلية الوعي الشعبي المتدرج للمشروع الصهيوني الذي كانت السلطات البريطاني لا تفتأ تخفي أهدافه ومراميه الحقيقية عن الشعب الفلسطيني والمحيط العربي، بينما تعمل في أرض الواقع على تحويل الحلم الصهيوني إلى واقع؛ عبر تمكينه بفتح أبواب الهجرة أمام اليهود، وتقديم التسهيلات للبناء المؤسساتي والدعم العسكري للمؤسسة الصهيونيّة.

وعن طريق إعادة قراءة الأخبار والمقالات والعناوين العريضة والفرعية في الصحف المختلفة قراءة متفحصة، لا سيما الصحف الرئيسة التي كانت تصدر في ذلك الوقت مثل جريدة فلسطين والكرمل والدفاع، يمكننا الادعاء بالوصول إلى نتيجة مفادها إدراك الشعب الفلسطيني، بكل فئاته، لمخاطر المشروع الصهيوني، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، وعدم احتكار ذلك على فئة المتعلمين أو كبار القيادات دون غيرهم؛ وذلك لأن أذرع المشروع الصهيوني كانت تنمو وتمتد كل يوم وتمس كل مظاهر الحياة المعاشة، من الفلاح الذي كان يلاحظ تقلص أراضيه الزراعية أمام عينيه بسبب تسرّب مساحات واسعة منها لليهود وطرده منها، وكان ذلك يتم

على الأغلب بسبب تسلّط الإقطاعين والملّاك الكبار على الأراضي، وكان بعضهم من خارج البلاد ، مثل عائلة سرسق التي كانت مسؤولة عن تسرب أراضي واسعه من فلسطين مثل مرج بن عامر. إلى الطلبة والمعلمين وأولياء الأمور الذين كانوا يرغبون بتسجيل أبنائهم في المدارس ولم يكن ليوفق معظمهم بسبب انخفاض إنفاق السلطات البريطانية على التعليم العربي، الأمر الذي أدى إلى قلة المدارس وصعوبة الوصول إليها أحيانًا، واختراع قوانين كقانون كبر السن لإيجاد حجة لرفض جزء كبير من طلبات اللاتحاق إلى المدارس، بينما على الجانب الآخر كان الإنفاق الحكومي على المدارس اليهودية أضعافًا مضاعفة، إلى جانب الدعم الخارجي الذي كان يتلقاه قطاع التعليم اليهودي في فلسطين، أضف إلى ذلك الاستقلال الذي تمتعت به تلك المدارس على مستوى المناهج والإدارة الذاتية. حتى وإن كانت هناك بعض الفئات التي استفادت من الوجود البريطاني وتبوأت مناصب متقدمة، إلا أنها كانت تشعر دائمًا أن بريطانيا كانت تعامل اليهود على أنهم الفئة الأكبر والأهم بالرغم من صغر حجمها مقابل العرب الذين كانوا يشكلون أغلبية البلاد، وهذا نجده في المطالبات المستمرة للمؤتمرات، فكنا نجد دائمًا بندًا يطالب بريطانيا بالعدل في توزيع الوظائف وفقًا للقوة الديمغرافية. كما أن امتداد الوجود الصهيوني نحو المسجد الأقصى ومحاولاتهم المستمرة لفرض أمر واقع فيه لاسيما قرب حائط البراق، أثار حفيظة المسلمين، وكان إلى جانب كل تلك الأسباب الماضية سببًا في اندلاع الهبات والانتفاضات المتتالية انتفاضة النبي موسى وهبة البراق ثم الإضراب الكبير وثورة عام1936.

تميزت تلك الهبات بتنوع الفعل الشعبي المقاوم نظرًا، لأن الشعب الفلسطيني لم يكن لديه جيش أو وحدات عسكرية على عكس الحركة الصهيونية التي سمح لها بتشكيل ميلشيات عسكرية تطورت لتصبح جيشًا نظاميًا في عام 1948 وبالرغم من ذلك إلا أن الشعب الفلسطيني عبّر عن سخطه وغضبه على بريطانيا والحركة الصهيونية بأشكال مختلفة تتقاطع في جلها مع ما يمارسه الشعب الفلسطيني اليوم احتجاجًا على آلة القهر الصهيونية من مقاطعة للبضائع الصهيونية والبريطانية، ومظاهرات صاخبة، وإضرابات، احتجاجًا على الأحداث والمظالم التي كان يتعرض لها الفلسطينيون، وعمليات عسكرية محدودة كان أكبرها وأكثرها تنظيمًا في ثورة 1936-1939، إضافة إلى التعبئة الشعبية عبر القصائد والأغاني ومهرجانات الخطابة. وكانت تقابل تلك النشاطات النضالية عادةً بالقمع والملاحقة من البوليس البريطاني الذي عاث في الشعب الفلسطيني ظلمًا من سجن وإرهاب وإعدامات وتمرير لوعد بلفور مع كل ذلك الرفض الشعبي والفعل المقاوم.

أدوات المقاومة الشعبية قبل 1948

- المقاطعة

قد يظن البعض أن أسلوب مقاطعة البضائع حديث نسبيًا؛ غير أنه كان أسلوبًا قديمًا نبهت له القوى الوطنية الفلسطينية في مؤتمراتها وخطاباتها، ولم تكتف بالتنبيه إلى مقاطعة البضائع الصهيونية فحسب، بل رأت بمقاطعة البضائع البريطانية أسلوبًا للضغط على السلطات البريطانية لسماع المطالب الفلسطينية، وللتدليل على أهمية المقاطعة، وجدنا هذا المقال الذي نُشر في افتتاحيّة جريدة فلسطين بعنوان «نعاملهم بالرغم منا... وبموجب قانون»، وفيه أن المندوب السامي شرّع قانونًا في عام 1929 يُجرم فيه أي عربي يمتنع عن شراء البضاعة الهودية بفعل التحريض، ومن ما جاء في المقال «كل هذا أوجده القانون الجديد لكل عربي في فلسطين يقول عنه يهودي واحد أنه فكر في الامتناع عن نفع اليهودية: اليهود الذين ثاروا عليه، وقتلوا أهله وأقاربه، وسلّطوا عليه نيران الإنجليز، واعتدوا على أماكنه المقدسة ووصموه بالإجرام واللصوصية، وقالوا عنه إنه وحش الصحراء ولص القرية، وأقسموا جهارًا نهارًا لا على سلبه هو وحده ولكن على سلب بلاده برمتها».

ومما لوحظ في المقاطعة بأنها كانت في الفترات الحرجة -أي في الهبات والانتفاضات- إلزاميّة ودلالة على الوطنيّة، واستدلينا على ذلك من الخبر الذي أوردته جريدة فلسطين عن جريدة اليرموك، إذ تقول «تذكر جريدة اليرموك الغراء في أخبارها المحلية أسماء التجار الفجار الذين يشترون بضائعهم من أعداء الوطن من المحلات غير الوطنية"، وقد نعتت الجريدة أولئك التجار بصفة الفجار ونُشرت أسماؤهم في صحيفة اليرموك ولتأكيد الخبر تمت الإشارة إليه في جريدة فلسطين وفي ذاك فضيحة لؤلائك التجّار ورسالة ضمنية بمقاطعتهم أيضًا[1].

نعاملهم بالرغم منا !
وبموجب « قانون » ...!

1 فلسطين 25 تشرين أول 1929.

- الإضراب

امتدت الإضرابات التي خاضها الشعب الفلسطيني على طول التاريخ الحديث، وفي الفترة الانتدابية كان يُستعمل الإضراب وسيلة للاحتجاج على سياسات السلطات الانتدابية الظالمة والتميزية ضدّ الشعب الفلسطيني، ومن أشهر تلك الإضرابات وأطولها في التاريخ الحديث هو الإضراب الذي امتد الى ستة أشهر في عام 1936، حيث شلّ جميع أركان الحياة من مدارس وأنشطة تجارية ومعاملات ودفع ضرائب للحكومة، وقد التزم الشعب بشكل ملفت لأوامر اللجنة التنفيذية في الالتزام بالإضراب إلى حين تنفيذ حكومة الانتداب المطالب الفلسطينية، التي كانت تتمثل بشكل رئيس بإيقاف الهجرة اليهودية وبيوع الأراضي لليهود. كما كان يتعرض للانتقاد ويتهم في وطنيته أي شخص لا يلتزم بالإضراب، مثال على ذلك التقريع الذي وجهته جريدة فلسطين لبحّارة عكا بسبب عملهم رغم إعلان الإضراب. ثم كان الإضراب يمتد أحيانا إلى البلدان العربية المجاورة التي كانت تتضامن مع فلسطين في محنتها خصوصًا في سوريا والقاهرة.

واجهت السلطات الانتدابية الإضرابات التي كان يخوضها الشعب الفلسطيني بشتى صنوف العنف والترهيب في محاولة منها لمحاربة هذا النوع من الاحتجاج، فلم تسمح بتعطيل المدارس أو غياب الموظفين عن أماكن عملهم في أيام الإضرابات، بل وكانوا عُرضة للملاحقة والطرد إذا ما اكتشف أنهم متضامنين مع الإضرابات، ومما نرويه من تلك الحوادث ما تعرّض له طلبة نابلس من جلدٍ على يد فرل مساعد مدير المعارف العام في نابلس بعد أن زار المدرسة الصلاحية الثانوية فوجد الطلاب قد أضربوا بعد شنق الأبطال الثلاثة سنة 1929م[2]، فأمر في اليوم التالي بجلد الطلاب الذين اعتقد أنهم المحرضين على الإضراب بطريقة وحشية ومنافية للآداب[3].

«فلسطين في ١٧ ايلول سنة ١٩٣٦»

الأضراب العام
في اليوم
٥٢
بعد المئة ...

وصول نجدات عسكرية

2 نقصد بهم محمد جمجوم وفؤاد حجازي وعطا الزير.
3 جُردوا من ملابسهم وضُربوا على أقفيتهم.

- القصائد والأغاني الشعبية

كانت الأغاني الشعبية ولاتزال من الموروثات المهمة للشعب الفلسطيني؛ نظرًا لأنها تؤرخ للأحداث الفلسطينية ويسهل معها حفظها وترديدها، وقد كان لها مكانة أكبر في الماضي نظرًا إلى ندرة وسائل الإعلام، فكانت تُستخدم كأداة سردٍ مقفاه للأحداث والسير، ومما حفظته لنا الذاكرة ولا زلنا نردده هي قصيدة الرثاء للشهداء الثلاثة الذين أعدمتهم بريطانيا في ثورة البراق.

من سجن عكا طلعت جنازة محمد جمجوم وفؤاد حجازي

جازي عليهم يا شعبي جازي المندوب السامي وربعه عموما

ويقول محمد أنا أولكم خوفي ياعطا أشرب حسرتكم

ويقول حجازي أنا أولكم ما نخاف الردى ولا المنونا

نادى المنادي ياناس إضراب يوم الثلاثا شنق الشباب

أهل الشجاعة عطا وفؤاد ما يهابو الردى ولا المنونا

ومن الشعر الذي وثق الإضراب الكبير نجد ما يلي:

يوم ما صار الإضراب هاجت جميع الشباب

لانحسب للعدا حساب لو كانو بعد الأقطار

يوم ما صارت ثورات صارت في كل الجهات

راح الصهيوني شتات قال ما النا اقتدار

هذا البريطاني بندوق يدافع عن الكفار

احنا ولاد المسلمين نحمي الوطن بالمرتين

كرامات للحج أمين __ولا ديار

تحيا بلادك سوريا هم أرض الحميا

اخذو الحرية والفرنسي ولى محتار

فلسطين أهل الثبات ملو الأرض عصاة

منعوا الأتمبيلات يطلعن ولا مشوار

سكروا الدكاكين وانمنعت كل الثمار

عصابة ولاد البلاط شاعوا في الدنيا أسواط

الصهيونيي عياط عياط على تقطيع الأشجار

يا خسارة البرتقال قطموه حي العربي

ياغازي اشفك ع الدين لا تغفل عن فلسطين

سيدك الملك حسين بقا رئيس الشواذ

غازي ياملك العراق وطنا إلك مشتاك

ابعث لعمك أوراق قلب قاسي ما يندارر

عمك عبدالله الشريف على الوطن ماهو شريف

حكيو ما بدو توصيف ماسك خاطر للكفار

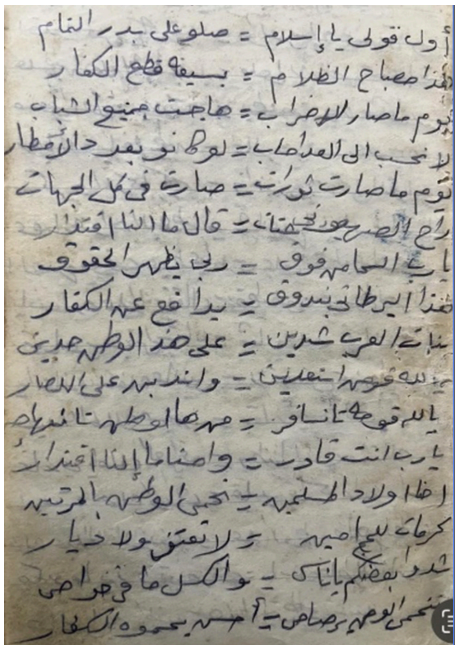

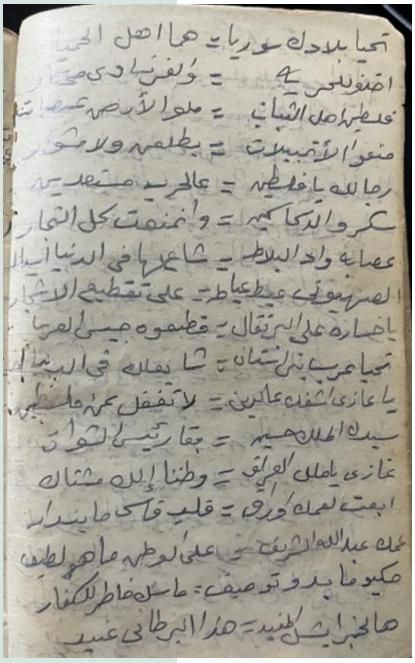

هـذا الشـعر الـذي عثرنـا عليـه في مذكـرات غيـر منشـورة يحكـي قصـة الإضـراب الكبيـر بلغـة بسـيطة ومختصـرة للأحـداث، فيجمـل الحـدث بأنـه شـمل أوجـه الحيـاه كلهـا؛ فمُنعت المواصـلات وأُغلقـت الدكاكيـن وتعطـل قطـف الثمـار، وانتشـرت الأعمـال الفدائيـة بـأدوات بسـيطة، يذكـر في القصيـدة المارتيـن وهـي بندقيـة عثمانيـة بالرغـم مـن بسـاطة الأدوات إلا أن الصهيونــي جــن جنونــه وألقــى غضبــه على الشــجر تقطيعًــا لعــدم قدرتــه على الفلسـطيني فهبـت إنجلتـرا لنجدتـه، وكأن المشـهد يتكـرر اليـوم في حـرب غـزة. ثـم تحكي لنـا تلـك الأبيـات باختصـار موقـف الثـورة والشـعب مـن القيـادات الداخليـة الفلسـطينيين، إذ كان هنـاك احتـرام للحـاج أميـن الحسـيني وبعـض الـود للملـك غـازي بـن فيصـل ملـك العـراق الـذي دعتـه إلـى التواصـت لـدى عمـه عبـد الله ملـك الأردن الـذي اختـار صـف الإنجليـز بـدل إخوتـه وجيرانـه الفلسـطينيين.

- الحركة الطلابية

رغـم ضعـف العمليّـة التعليميّـة زمـن الانتـداب الـذي لـم يلـق كثير اهتمـام بقطـاع التعليم العربـي، مـا نجـم عنـه نقـص شـديد في عـدد المـدارس والمقاعـد الدراسـية المنتشـرة في البـلاد لاسـيما القـرى منهـا، كمـا خلـت البـلاد مـن أي جامعـه باسـتثناء الجامعـة العبريـة التـي أسسـها اليهـود في القـدس، لـذا لـم يكـن أمـام الطلبـة الفلسـطينيين العـرب سـوى عـدد محـدود مـن الكليـات ودور المعلميـن لإتمـام عمليتهـم التعليميـة، في مـا توجهـت أنظـار عـدد كبيـر منهـم للدراسـة في الأقطـار العربيـة المجـاورة، ومـع ذلـك فقـد حملـوا هـمّ البـلاد، وكانـت لهـم محـاولات مسـتمرة مـع الطلبـة في الداخـل لتنظيـم أنفسـهم في حـركات طلابيـة تمخضـت عـن اتحـاد طلابـي في عـام 1929، وقـد صبّـوا جـلّ اهتمامهـم على التنبـه لخطـر الصهيونيـة بعمـل جـولات ميدانيـة ومحاولتهـم إقنـاع الفلاحيـن بخطورة بيـع أراضيهـم لليهـود وكانـوا في الصيـف ينشـؤون المـدارس الصيفيـة مسـاهمة منهـم في محـو الأميـة ورفـع مسـتوى الثقافـة لـدى المجتمـع الريفـي، كمـا كان لهـم دور التوعيـة لأهميـة المقاطعـة، وقـد أقسـموا اليميـن في مؤتمرهـم الـذي عقـد في عـام 1936م في يافـا على مقاطعـة البضائـع الصهيونيـة والإنجليزيـة معًـا، كمـا كان لهـم دور في تعريـب الكشـافة والامتنـاع عـن أداء قسـم اليمـن لملـك بريطانيـا وانسـحبوا مـن فـرق الكشـفية البادنيالويـة في عـام1936 خصوصًـا بعـد قـرار المسـتر بومـن منـع الكشـافة مـن العمـل في الإسـعاف.

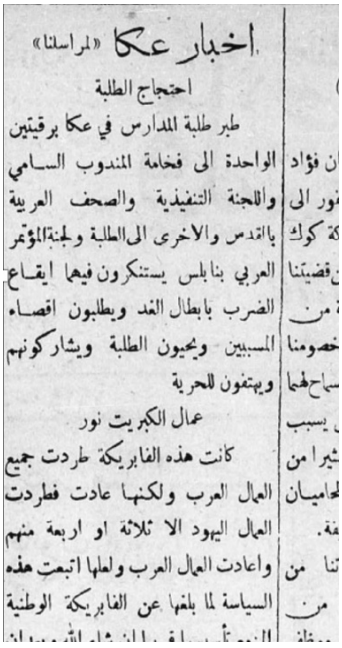

أخبار عكا «لمراسلنا»

احتجاج الطلبة

طبر طلبة المدارس في عكا برقيتين الواحدة الى فخامة المندوب السامي واللجنة التنفيذية والصحف العربية بالقدس والاخرى الى الطلبة ولجنة المؤتمر العربي بنابلس يستنكرون فيها ايقاع الضرب بابطال الغد ويطلبون اقصاء المسببين ويحيون الطلبة ويشاركونهم ويهتفون للحرية

عمال الكبريت نور

كانت هذه الفابريكة طردت جميع العمال العرب ولكنها عادت فطردت العمال اليهود الا ثلاثة او اربعة منهم واعادت العمال العرب ولعلها اتبعت هذه السياسة لما بلغها عن الفابريكة الوطنية

- التبرعات

كان الإضراب الذي خاضه الشعب الفلسطيني في عام 1936 بإرادة خالصة من الشعب الذي التف حول اللجنة التنفيذية، وأبدى تفانيه التام في تحمّل عبء ذلك الإضراب لمدة ستة أشهر رغم ضيق الحال ومضايقات بريطانيا المستمرة؛ ونتيجة طول المدة انتشر الفقر والعوز وعانت البلاد أزمات متراكمة، ولكن في تلك الأوقات الصعبة رصدنا عديد صورٍ من البذل والعطاء التي حفظتها لنا الصحافة، فنجد خبرًا بعث به البحارة يثنون فيه على رئيسهم أحمد عوض عبد العزيز من المساعدة ومكارم الأخلاق؛ إذ استمرّ في صرف رواتبهم طيلة الإضراب حتى أنه اضطر الى بيع نصف داره بعد أن نفدت مدخراته لأجل صرف رواتب العمال البسطاء.

كما امتلأت الصحف على طول أيام الإضراب بإدراج أسماء المتبرعين لصالح اللجنة القومية التابعة للجنة التنفيذية من مواد تموينية أو تبرعات نقدية لإغاثة المنكوبين، حتى أن بعض تلك التبرعات كانت تأتي من الجاليات الفلسطينية في الخارج، فوثق لنا خبر تبرع الجالية الفلسطينية في المكسيك لصالح منكوبي فلسطين.

«فلسطين في ١٧ ايلول سنة ١٩٣٦»

تبرعات المهاجرين العرب بالمكسيك لمساعدة المنكوبين والفقراء في فلسطين

تلقى السيدان سليمان القنواتي وخائيل القواس مبلغ ٣٥١٨ ريالا مكسيكيا ونصف الريال اي ما يعادل ٩١١٦ دولارا و ٦٦ سنتا من اخواننا العرب الفلسطينيين المهاجرين في المكسيك لتنفق على المنكوبين والفقراء وقد جمعت منهم بواسطة لجنة مؤلفة من السادة : بشاره فرح اندونيه - انطون يعقوب مرقص - يوسف بتايوت وطانيوس البندك

والى القراء قائمة باسماء المتبرعين:

تبرعات جالية مونتري

ريال

٢٥٠ ادمبق اخوان بيت لحم
١٥٠ اسيرو عبد الله القنواني
٥٠ ايضا عن روح اخيه الخوري الياس القنواني بيت لحم
١٧٥ زايد ورزق الطيبة
١٢٥ يوسف جريس مرقص واخيه بيت لحم
١٠٠ بيترو عبد الله القنواني بيت لحم
٢٥ ايضا عن روح اخيه الخوري

تبرعات سيدات مونتري

١٠٠ جيبة قرينة سلامه مرقص بيت لحم
٢٥ استيلا كريمة سلامه مرقص «
٢٠ جيبة قرينة اسيرو عبد الله القنواني «
٢٠ جوليا قرينة بشاره فرح اندونيه «
١٠ ماريا قرينة بشاره عبد الله مرقص «
٢٠ ماريا قرينة بيترو عبد الله القنواني بيت لحم
٢٠ مريم قرينة يوسف جريس مرقص «
٢٥ ليلى قرينة خليل عيسى مرقص «
٢٠ جيبة ارملة موسى البندك «
١٠ جيبة ارملة ابراهيم عبد الله القنواني «
١٠ روزا قرينة عيسى بيترو القنواني «
١٠ صالحة قرينة صالح ابوخوندة «
١٠ عفيفه قرينة بشاره حنا خليل

- المظاهرات

كانت التجمعات والحشود الجماهيرية أكثر ما يخيف السلطات البريطانية التي كانت تمنع تلك المظاهرات وتغلق في وجهها الطرقات وتنشأ الحواجز لمنع وصول الناس إليها، وكانت تدفع بالشرطة لتلك الحشود فتنهال على أولئك العزل بالهراوات وأعقاب البنادق، وأحيانًا كثيرة كانت تتطور الأمور لإطلاق الرصاص الحي، الأمر الذي كان يوقع إصابات وشهداء في صفوف المتظاهرين، وكان المتظاهرين عادة يهتفون ضد اليهود والإنجليز معًا.